التنوع والثراء في قصص الجدار الزجاجي(*)

سمير الشريف/ الأردن

كتابة تهجس بروح الأنوثة وطقوسها، تستحضر الوجه المرئي للكائن والإفصاح عنه في محاولة لاستعادة قوة الوجود فيها.

الأنوثة نزوع لأنسنة العالم الذي يحيلها لذات فاعلة وتتكشف عن جوهرها العميق الحاوي كينونة الخلق، خطابا يكشف عن روح الأنثى مفسّرا شفرتها المحملة بهاجسها الوجودي وبوحها القلق،

والانحياز لمزاج الأنثى الذي يفضح هشاشة المحيط بوعي جاد على الأنا، حيث المرأة المتمردة والنافرة في تعال عن محيطها في محاولة تعويض عدم التوافق بإنتاج نص يوازن ما بداخلها من ضياع يتساوق مع المحيط الخارجي.

خروجا عن محيط الثيمة التي دارت حولها مجموعة "قافلة العطش"وروايتها"السقوط في الشمس" نرى (سناء شعلان) في مجموعتها" الجدار الزجاجي"والصادرة عن عمادة البحث العلمي في الجامعة الأردنية، تخرج لفضاءات أرحب، بعيدا عن أوجاع الأنثى، معتمدة تقنية جديدة بتأسيس عنوان رئيس ومجموعة توابع بعناوين فرعية تفضي جميعا لثيمة واحدة بحالات منوعة تطول وتقصر كسداسية الحرمان الذي تبع له ستة عناوين هي: المتوحش /المارد/ الخصي/ إكليل العرس/فتى الزهور/الثورة، في حين إن العنوان الرئيس (أكاذيب البحر)انبثق عنه: أكذوبة الجزر/أكذوبة اللؤلؤة /أكذوبة النورس/أكذوبة الأمواج/أكذوبة المد والمرجان/أكذوبة الأصداف، وكذلك فعلت في الكابوس إلى أن تعود لنصوصها المستقلة، كل بثيمتها ولغتها وفضائها.

في "سداسية الحرمان، يواجهنا نص"المتوحش"بالحرمان الذي اكتوى به الرجل، على عكس ما كرسته الساردة في قصصها السابقة، حيث الحرمان جمرة يكتوي بها الإنسان بغض الطرف عن جنسه، هذا الرجل، سيعاني من حرمان يختلف عما حرمت منه الأنثى، رجل فكرة الزمن عنده معلقة ومفرغة من أبعادها النفسية والفسيولوجية، والزمن عنده لا يساوي إلا مقدار رجوعه، ولا يأنف من تكرار الليالي على عمره، لا يعرف إلا بالأصوات والروائح الخطر القادم نحوه لكنه يحتاج لدفء العاطفة ونعومة الجسد ليكمل معنى وجوده مخلوقا ناقصا يسعى لنصفه الآخر.

هذه المتتاليات القصصية التي تشكل إيقاعا عاما متجانسا تصب في بؤرة واحدة مهما كان الناطق بها لحاجة الروح للحب والجسد للارتواء ولمن يكتشف تفاصيله ويسافر مع تضاريسه، حاجة مطلقة للتماهي في الآخر.

هذا الرجل الذي يجترح له عالما خاصا يصطلي على جمر الانتظار، يفشل مشروعه الوجودي وإن ظل يتمنى الحصول على مجرد حلم واحد فقط، فكل من حوله يعتاشون على عذب أحلامهم، يحققون نشوتهم ويفرغون رغباتهم المدفونة، إلا أنه يفتقد حلمه بسبب كابوس هو لعنة الحياة ولعنة نفسه الآثمة ولعنتها هي أيضا.

الذكورة المشوهة، المتهكمة الساخرة، تنظر للمرأة التي لم يذق طعمها بعد ويرغب فيها على سبيل التغيير والتحدي، امرأة تخلو من أي جمال أنثوي، امرأة معنّاة بشكلها وموتورة بإثارتها، يريدها مسخا بلا تشوهات ليثبت للأصدقاء أن رجولته المتهيجة قادرة على استحضار ذاتها حتى مع أقبح النساء، يريدها امرأة قبيحة جدا... تحرك رجولته الطاغية وقسماته المثقلة بشهوتها، قلبها وأنوثتها التي لم تصدق أنها تستوقف رجلا، فكان اللقاء، وعلى يديه بدأت أول تنهيداتها، مزيج من السحر والأزلية، خليط من الرغبة والنشوة، حالة خاصة من العشق والتمني توثبت لأجلها رجولته وظل حبيس تأوهاتها لينام ولا يحلم، ويستيقظ ليجد أنه ما زال حبيس كابوس يسمى هي !!

مثل هذه الأحلام لم تغادر الأنثى التي تعيش أحلامها ليل نهار... في الليل ترى نفسها في سعادة لا تعرف نهاية وفي النهار تتخيل نفسها نائمة تعيش أحلام يقظة هانئة، ترى جسدها يكتسي بأنوثة هانئة... تترك نفسها للتمني فتجد المستحيل حقيقة، تنسى أنها امرأة محبوسة خارج أنوثتها، لم تذق يوما لحظة أنوثة على يديّ رجل خلا ذلك الكابوس...

تحظى باحترام الرجال دون حبهم... اعتادت أن تحضن الفراغ، في حين يحضن غيرها قلوب حانية عاشقة، لا أحد يعنى بحرمانها ووحدتها.

تؤكد الكاتبة أن وجع الإنسان ليس مقصورا على رجل وامرأة فكلاهما يبحث عن نصفه حتى يستقيم وجوده ويتصالح مع ذاته ومع الكون من حوله.

في قصة "الباب المفتوح" يغادرنا السرد مبتعدا عن أجواء هيمان الروح وعطش الجسد إلى واقع اجتماعي سياسي مقدما سخرية سياسية جارحة وُظف فيه البعد التاريخي والتراثي لإسقاط مضامين معاصرة، حيث نلحظ براعة التصوير الكاريكاتوري لشخص المستبد الذي يتظاهر بالعدل، الأمي الجاهل، مطارد النساء غير المهتم بغير عالمه الخاص، مهملا الجوانب

الصحية والاجتماعية والفكرية في مجتمعة سيء الأحوال، على الرغم من ادعاءاته الكاذبة واهتمامه بالمظاهر بوجود المطبلين من حوله.

تحدث المفارقة برسالة قرأها وزير السلطان كُتب فيها: مولاي: أنا ابن المزارع (دهبور)عمري تسع سنوات، أريد أن أعرف لماذا منعت الرعية من شرب الحليب مع أنه مفيد للصحة؟ أحقا انك تمتلك بحيرة من حليب تسبح فيها محظياتك لينعمن ببشرة جميلة ؟

في هذا النص نكتشف لعبة فنية وظفتها الساردة بذكاء لتمرير مضمون عميق ونقد ساخر، فضلاً عن توظيف الغرائبي والأسطورة كما في "ملك القلوب"، كما نلحظ بروز الإعاقة الجسدية كمعادل لفقد الآخر روحا وجسدا كما في " رجل محظوظ جدا".

ما بين السياسي والاجتماعي والعاطفي، تظل الأنثى محورا تأتلف حوله النصوص في مجمل فضاء الإبداع وهي المحور الذي تتوهج به العبارات والثيمة التي تتألق الكاتبة بكشف أعماقها ورصد دمعاتها التي تختفي بين ابتسامات التصبّر والانتظار، لا غرابة فالأنثى دائما هي الأصل سواء في سعيها للرجل الأسطورة أم في سعي الرجل للمرأة الحلم وحاجتهما معا لديمومة وجودهما بالحب وبالحنان.

هوامش البحث:

* سناء شعلان: الجدار الزجاجي، ط 1، منشورات عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية، 2005، ص 232.